مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة

العدد الثامن
1991 م.

الإعجاز في الأسلوب القرآني

الأستاذ فرج علي حسين

إذا تأملنا وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وهو إعجازه في أسلوبه، وبلاغته فاننا نجد في كل آية من آياته ما يوضح هذا الإعجاز.

وكما أن القرآن كله معجز فإن أقصر سورة من سوره تحمل نفس الاعجاز، ولهذا تحدى القرآن المشركين بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا على فصاحتهم.

وإذا كان العرب وهم فصحاء بالسليقة قد فطنوا إلى ذلك، وتذوقوا سمو أسلوب القرآن فإن العرب اليوم غير العرب بالأمس، فقد بعدوا عن الأساليب العربية الفصيحة، وأصبح ذلك أمراً لا يدركه إلا المتخصصون، وهو لا يساوي ما كان عند العربي الأصيل. وذلك لأسباب اجتماعية وتاريخية وثقافية.

وقد اهتم العلماء المسلمون على مر التاريخ بدراسة هذا الجانب من جوانب اعجاز القرآن، وتركوا لنا في هذا المجال ثروة طائلة تزخر بها كتب التفسير،

والكثير من كتب اللغة والأدب، كما ألف بعض العلماء كتباً عديدة في اعجاز القرآن قديماً وحديثاً.

وليس في امكان أحد أن يلم بما في هذا الجانب من جوانب الاعجاز في القرآن الكريم، ولذلك فإن غاية ما يرمي إليه الباحثون في هذا الجانب الفسيح هو الاشارة إلى بعض الأمثلة والشواهد، لأن الاحاطة بكل ما في القرآن من اعجاز أمر فوق طاقة البشر.

وسأشير إشارات سريعة إلى بعض الأمثلة التي يتضح فيها ما يميز الأسلوب القرآني المُعْجِز من خلال بعض الآيات الكريمة ومجيئها بالأسلوب الإلهي الذي لا يدانيه أسلوب:

فمن وجوه اعجاز القرآن في اسلوبه اشتماله على عدة معان في لفظ يسير كما في قوله تعالى في سورة القصص ﴿**وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليَمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين**﴾[1].

فقد جمعت الآية أمرين: أرضعيه وألقيه، ونهيين لا تخافي، ولا تحزني، وبشارتين: رادّوه وجاعلوه.

وفي قوله تعالى: ﴿**فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً**﴾[2] فاللام في ليكون لام العاقبة والصيرورة؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدواً وحزناً، فذكر الحال بالمآل، والالتقاط: وجود الشيء من غير طلب، ولا ارادة، والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا ارادة التقطته التقاطاً، ومنه اللقط[3]. فلم يعبر بالأخذ، وإنما عبر بالالتقاط؛ لأنه هو الذي يتفق مع نية آل فرعون وبذلك نرى أن كل لفظ وضع في مكانه، ولا يغني عنه أي لفظ يرادفه في المعنى.

---

(1) سورة القصص، الآية: 6.

(2) سورة القصص، الآية: 7.

(3) تفسير القرطبي ص 252 ج 13 دار احياء التراث العربي بيروت.

وفي قوله تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾[4]، وحذف الضمير ـ الكاف ـ لأمرين:

(أ) اتفاق الفاصلة ليسير الأسلوب على نسق واحد اختصاراً.

(ب) وبيان أن بغض الله لا يتصل ببينة تكريماً له، وزجر المدعى وقوعه.

وفي نفي التوديع والقلى، اثبات للقرب والحب، فالاسلوب على وجازته بالغ حد الروعة[5].

وقد حكى الأصمعي فقال: كنت أقرأ: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾[6] وقد سهوت فقلت: والله غفور رحيم، وكان أحد العرب يسمعني فقال ليس هذا كلام الله، فلا يتفق سياق الآية مع الرحمة، فسألته: أتقرأ القرآن؟ فقال لا. فلما قرأت الآية صحيحة قال: صدقت: هذا كلام الله عز وحكم فقطع[7].

وذكر أبو عبيدة ان اعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾[8].

فسجد الأعرابي وقال: سجدت لفصاحته، وكان موضع التأثير في هذه الآية هو كلمة: اصدع: في ابانتها عن الدعوة، والجهر بها، والشجاعة فيها، وكلمة بما تؤمر في ايجازها وجمعها.

وسمع رجلاً آخر يقرأ: ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾[9] فقال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

ويكفي دليلاً على اعجازه أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة

---

(4) سورة الضحى، الآية: 3.

(5) قبس من نور القرآن ص 29 الشيخ أحمد عبد اللطيف بدر.

(7,6) سورة المائدة، الآية: 40 وانظر: آيات في آيات ص 34 الأستاذ عبد الرزاق نوفل.

(8) سورة الحجر، الآية 94.

(9) سورة يوسف، الآية: 80.

الحروف المذكورة في أوائل السور، كذلك نصف الحروف المجهورة، لا زيادة ولا نقصان[10].

ونحن حين نتناول معنى بكل دقائقه، فاننا نجد أن كل لفظ، لا يصلح إلا في مكانه، ولتوضيح هذا نجد الحق سبحانه وتعالى يعرض قضية عند الجاهلية، وهي أنهم كانوا يقتلون أولادهم فيقول: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم**﴾[11] وفي آية أخرى يقول: ﴿**ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم**﴾[12].

ففي الآية الأولى قدم رزق المخاطبين وهم الآباء على رزق أولادهم لأن الفقر موجود بالفعل، وهو السبب المباشر لقتل الأولاد، وما دام الفقر موجود بالفعل فالانسان يكون مشغولاً برزق نفسه قبل أن يشغل برزق ولده، وهنا يطمئنه الله على رزقه فيقول:

نحن نرزقكم يا أصحاب الاملاق واياهم، فنأتي برزقهم أيضاً.

أما في الآية الثانية، فالفقر غير موجود بالفعل، وإنما هو متوقع فهم يخافون ان جاء لهم أولاد ان يأتي الفقر معهم، فيقول تعالى نحن نرزقهم، احضرهم وأحضر معهم رزقهم، ونرزقكم أنتم.

فالمخاطب مرة يكون فقيراً بالفعل، ويكون في هذه الحالة مشغولاً برزقه قبل أن يشغل برزق ولده، فتكون الآية نحن نرزقكم وإياهم ومرة يكون غنياً، ولكنه يخاف الفقر مع الأولاد، ويكون شغله الشاغل رزق الولد فتكون الآية نحن نرزقهم وإياكم.

وإذا نظرت إلى عجز كل آية مع صدرها وجدت أن ذلك العجز مطلب لذلك الصدر[13]، ولا يمكن أن يستقيم المعنى بتلك الدقة المتناهية إلا باللفظين اللذين ذكرا في الآيتين، فأشارت كل آية إلى ما يناسب ما يدور في ذهن المخاطب.

---

(10) التحرير والتنوير ص 107 ج 1 الشيخ الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر.

(11) سورة الأنعام، الآية: 151.

(12) سورة الإسراء، الآية: 31.

(13) اعجاز القرآن ص 125 للشيخ محمد شعراوي، دار الشروق، والتحرير والتنوير ص 88 ج 15.

وقد ذكر السيوطي عن ابن جني في قوله تعالى: ﴿قالوا يا موسى اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى﴾[14] ان العدول عن قوله واما ان نلقى لغرضين:

أحدهما لفظي وهو المزاوجة لرؤوس الآي، والآخر معنوي وهو أنه تعالى أراد أن يخبر عن قوة انفس السحرة، واستطالتهم على موسى فجاء عنهم باللفظ اتم وأوفى منه في اسنادهم الفعل اليه، لأن جميع ما ورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان من القرون الخالية، إنما هو معرب عن معانيهم، وليس بحقيقة الفاظهم[15].

والمعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة يخبر عنه بأفصح مما يلائم الجزء الآخر ولا بد من استحضار معاني الجمل، أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها، ولذلك أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وجنى الجنتين دان﴾[16]، فلو قال مكانه: وثمر الجنتين قريب لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين. ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حالٍ يجنى فيها، ومن جهة مؤاخاة الفواصل ومنه قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب﴾[17] أحسن من التعبير بقوله: تقرأ لثقل الهمزة ومنها ﴿لا ريب﴾[18] أحسن من: لا شك لثقل الادغام. ومنها ﴿لا تهنوا﴾[19] أحسن من ولا تضعفوا لخفته. ومنه ﴿آمن﴾[20] أخف من صدق. ومنها ﴿آثرك﴾[21] أخف من فضلك.

ومما يميز الأسلوب القرآني كذلك المقابلة بين ما يجده المؤمنون من النعيم في الجنة وبين ما يجده الكافرون من عذاب النار؛ ليظهر الفارق أشد ما يكون

---

(14) سورة طه، الآية: 65.

(15) الاتقان للامام السيوطي ص 125 ج 2 ط 1 المطبعة الأزهرية.

(16) سورة الرحمن، الآية: 53.

(17) سورة العنكبوت، الآية: 48.

(18) سورة البقرة، الآية: 2.

(19) سورة آل عمران، الآية: 139.

(20) سورة البقرة، الآية 284.

(21) سورة يوسف، الآية: 91 وانظر الاتقان ص 125 ج 2.

وضوحاً: أرأيت لوناً أزهى من نضرة الوجوه السعيدة الناظرة إلى الله، ولوناً أشد تجهماً من سواد الوجوه الكالحة، الباسرة في قوله تعالى: ﴿**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة**﴾[22] لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة ناضرة بتصوير أزهى لون وأبهاه، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة باسرة برسم امقت لون وأنكاه، وحين تسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلها، مثلما تستريح إلى خفة وقعها في قوله: ﴿**فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس**﴾[23] بينما تقع الرهبة في نفسك وانت تسمع لاهثاً مكروباً صوت الدال المنكرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة تحيد بدلاً من تنحرف أو تبتعد في قوله تعالى: ﴿**وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد**﴾[24].

وتقرأ قوله تعالى: ﴿**فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز**﴾[25] فلا ترى في المعجم غير كلمة زحزح تصور مشهد الابعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد، وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النار ويسمعه ويكاد يصلاه[26].

ومن خصائص الأسلوب القرآني أيضاً أن الكلمة الواحدة قد تعطي أكثر من معنى دون أنْ يكون هناك تضاد أو تنافر بين تلك المعاني وبحيث يتسق المعنى العام تمام الاتساق مع كل معنى ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿**متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً**﴾[27] والزمهرير: البرد والمراد بالشمس: حر أشعتها، فنفى رؤية الشمس من قوله لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً فيكون نَفْي رؤية الشمس كناية عن نفي وجود الشمس الذي يلزم انتفاء حر شعاعها فهو من الكناية التلويحية.

---

(22) القيامة من الآيات 24/21.

(23) سورة التكوير، الآيات: 18/15.

(24) سورة ق، الآية: 19.

(25) سورة آل عمران، الآية: 185.

(26) مباحث في علوم القرآن ص 335 د. صبحي الصالح، دار العلم لملايين بيروت.

(27) سورة الإنسان، الآية: 13.

والزمهرير اسم البرد القوي في لغة الحجاز والمعنى أن هواء الجنة معتدل لا ألم فيه بحال. كما أن الزمهرير اسم القمر في لغة طيىء ومنه قول ثعلب:

وليلة ظلامها قد اعتكر قطعتها والزمهرير ما زهر

والمعنى على هذا انهم لا يرون في الجنة ضوء الشمس، ولا ضوء القمر، أي ضوء النهار، وضوء الليل؛ لأن ضياء الجنة من نور واحد خاص بها وهذا معنى آخر غير نفي الحر والبرد[28]. فكما يكون البرد مقابلاً للشمس ودفئها على اعتبار أن الزمهرير هو البرد يكون أيضاً معادلاً للشمس وضوئها على اعتبار القمر، وبذلك يكون لكلمة الزمهرير أكثر من معنى في حين لا تتعارض هذه المعاني، وانما تنسجم غاية الانسجام مما يعطي خصوبة في المعنى لا مزيد عليها.

وقد بلغ من دقة القرآن الكريم في اسلوبه تلك الخماسيات التي تشمل الفئات السبع التالية في افتتاحيات السور:

الفئة الأولى: خمس سور مفتتحة بالتحميد: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر، وكلها مكية.

الفئة الثانية: خمس سور مفتتحة بالتسبيح: الحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن وكلها مدنية.

الفئة الثالثة: خمس سور مفتتحة بألف لام راء: يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر. وكلها مكية.

الفئة الرابعة: خمس سور مفتحة بالنداء: النساء، العقود، الحج، الحجرات، الممتحنة. وكلها مدنية.

الفئة الخامسة: خمس سور مفتتحة بنداء الرسول: الأحزاب، الطلاق، التحريم، المزمل، المدثر. وكلها مكية.

الفئة السادسة: خمس سور مفتتحة بالاستفهام: الدهر، الغاشية، الشرح، الفيل، الماعون. وكلها مكية.

الفئة السابعة: خمس سور مفتتحة بالأمر: الجن، الكافرون، الاخلاص،

(28) التحرير والتنوير ص 389 ج 2.

الفلق، الناس، وكلها مكية[29].

ويشير الزركشي إلى أنواع أخرى من استفتاح السور بالنداء وبالجمل الخبرية، والاستفتاح بالقسم، وبالشرط، وبالأمر، وبالاستفهام، وبالدعاء، وبالتعليل[30]، وذلك كله على سبيل التفنن والتلوين، مما يعجز عنه أفصح الفصحاء.

وما من حرف في القرآن الكريم إلا وله معنى، ولوجوده حكمة، ولنأخذ مثلاً على ذلك ما يسميه النحاة حرف جر زائداً، وهو الذي يأتي بعد نفي كما في قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾[31] فالكاف هنا ليست حرف جر زائداً كما يقول النحاة وفقاً للقاعدة المذكورة، وأكثر أهل العلم، قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها، ولكن لهذا الحرف في مكانه دلالة من وجهين:

الوجه الأول: لو قيل: ليس مثله شيء لكان ذلك نفياً للمثل المكافي وهو المثل التام المماثلة من كل الوجوه، ولكنه لا يمنع من أن هنالك رتبة لا تماثل رتبة الالوهية، ولكنها تليها، وربما تكون للملائكة وللأنبياء أو غيرهم، فكان وجود هذا الحرف في الكلمة اقصاء للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة أو يدانيها كأنه قيل ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلاً لله، فضلاً عن أن يكون مثلاً له، وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى: ﴿**فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما**﴾[32] نهياً عن يسير الأذى صريحاً، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى.

الوجه الثاني: ان المقصود الأول هو نفي الشبيه، وان كان يكفي لأداء المعنى أن يقال ليس كالله شيء أو ليس مثله شيء لكن هذا ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة، بل انها تريد هذا، وتريد أن تنبهك إلى برهان: الا ترى انك إذا أردت أن تنفي عن أحد نقيصة فقلت: (فلان لا يكذب) أخرجت كلامك مخرج

---

(29) مجلة العلم والإيمان عدد 61 يناير 81. تونس.

(30) البرهان في علوم القرآن للامام الزركشي ص 178 ج 1 المكتبة العصرية.

(31) سورة الشورى، الآية: 9.

(32) سورة الإسراء، الآية: 23.

الدعوى بدون دليل. أما إذا قلت (مثل فلان لا يكذب) لم تكن بذلك مشيراً إلى شخص آخر يماثله ليست فيه تلك النقيصة، بل كان هذا تبرئة له ببرهان كُلِّي، وهو أن من يكون على مثل صفات هذا الشخص لا يمكن أن يكون كذلك، ولا يوصف بنقيصة لوجود التنافي بين النقائص وبين طبيعته، وعلى هذا المنهج البليغ كانت الآية. فمثله تعالى لا يكون له مثيل، فكانت الكاف ومثل وكلاهما للمماثلة احدهما ركناً للدعوى والثاني دعامة لها، وبرهاناً فمن كانت له صفات الكمال لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه[33] فالآية بوجود حرف الكاف تنفي المثل والشبيه.

ومن أرقى فنون البلاغة في الأساليب العربية ما يسميه علماء البلاغة الاحتكاك أو تقريب الفائدة، بحيث يعطي الفائدة بايجاز دقيق وهو أن يأتي بأمرين كل أمر فيه عنصران، فيأتي بعنصر من الأمر الأول، ويحذف مقابله من الأمر الثاني، ويأتي بعنصر من الأمر الثاني ويحذف مقابله من الأمر الاول، مثل قوله تعالى: **﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾**[34] لم يقل فئة مؤمنة وأخرى كافرة، ولم يقل فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان، فجاء للأمر الأول وحذف منه مؤمنة، واستدل عليها بمقابلها كافرة، وجاء للامر الثاني وحذف منه تقاتل في سبيل الشيطان واثبت مقابلها تقاتل في سبيل الله.

كذلك في قوله تعالى: **﴿واستغفره انه كان تواباً﴾**[35] فأثبت واستغفره وحذف التعليل انه كان غفاراً؛ لانهما عنصران في أمر واحد. واثبت انه كان تواباً وحذف وتُبْ اليه لانهما عنصران في أمر واحد أيضاً[36].

ولا يمكن أن يجد علماء البلاغة وهم يبحثون عما يناسب المطابقة أو

---

(33) مناهل العرفان ص ط 2 ـ ج 2 للشيخ محمد الزرقاني ـ دار الشام للتراث.

(34) سورة آل عمران، الآية: 13.

(35) سورة النصر، الآية: 3.

(36) المنتخب من تفسير القرآن الكريم ص 101 الشيخ محمد شعراوي دار العودة ج 3.

المقابلة، أو الاغراق أو الايغال أو التتميم، أو التورية، أو الالتفات، أو اللفّ والنشر، أو الموازنة، أو الايجاز، أو الاستعارة، أو الكناية، أو غير ذلك مما يتناوله علم المعاني والبيان والبديع لا يمكن أن يجدوا اسلوباً أفصح ولا استعمالاً أدق من الاستعمال الجاري في القرآن الكريم.

ويجب علينا نحن المسلمين أن نربي النشء على فهم القرآن وتذوق أساليبه الرفيعة، لا أن نقرأه دون فهم، وتدبر.

والقرآن الكريم كتاب الهداية، وهو إلى جانب ذلك كتاب البلاغة والفصاحة، وهو المعجزة الخالدة التي لا يمكن أن تفنى أسرارها، ولا يحيط بها عقل البشر، ويكفي أنه كلام رب العالمين.

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾[37].

---

(37) سورة البقرة، الآية: 285.